كتاب التراث

منشورات مجلة الطليعة الأدبية

إعداد

الدكتور محمود عبد الله

الدكتور بهجت عبد الغفور

وزارة الثقافة والفنون
دار الجاحظ
منشورات مجلة الطليعة الادبية

- ٣ -

كتاب التراث

رئيس التحرير
أمجد توفيق

سكرتير التحرير
ياسين طه حافظ

الأخرس الناطق
وقفة عند جبل ابن خفاجة

حاتم محمد الصكر

العراق ـ بغداد

النص

ـ ١ ـ

(١) بعيشكَ هل تدري أهوجُ الجنائبِ
تخبُّ برحلي أم ظهورُ النجائبِ

(٢) فما لحتُ في أولى المشارقِ كوكباً
فأشرقتُ حتى جئتُ اخرى المغاربِ

(٣) وحيداً تهاداني القيافي فأجتلى
وجوه المنايا في قناعِ الغياهبِ

(٤) ولا أُنسَ إلاّ أن أضاحِكَ ساعةً
ثغورَ الاماني في وجوهِ المطالبِ

(٥) وليلٍ إذا ما قلتُ قد بادَ وانقضى
تكشّف عن وعدٍ من الظنِ كاذبِ

— ٢ —

(٦) وأرعنَ طمّاحِ الذؤابةِ باذخٍ
يطاولُ أعنانَ السماءِ بغاربِ

(٧) يسدّ مهبَّ الريحِ من كل وجهةٍ
ويزحمُ ليلاً شهبَهُ بالمناكبِ

(٨) وقورٌ على ظهرِ الفلاةِ كأنّه
طوالَ الليالي مفكرٌ في العواقبِ

(٩) يلوثُ عليه الغَيمُ سودَ عمائمٍ
لها من وميضِ البرقِ حمرُ ذوائبِ

(١٠) أصختُ إليه وهو أخرسُ صامتٌ
فحدثني ليلَ السُّرى بالعجائبِ

— ٣ —

(١١) وقالَ: إلى كمْ كنبُ ملجأَ قاتلٍ
وموطنَ أوّاهٍ تبتّلَ تائبِ

(١٢) وكم مرَّ بي من مدلجٍ ومؤوبٍ
وقالَ بظلّي من مطيٍّ وراكبِ

(١٣) ولاطمَ من نُكبِ الرياحِ معاطفي
وزاحمَ من خضرِ البحارِ غواربي

(١٤) فما كانَ إلاّ أن طوتهم يدُ الردى
وطارت بهم ريحُ النوى والنوائبِ

(١٥) فما خَفقُ أيكي غيرُ رجفةِ أضلعٍ
ولا نَوحُ ورقي غيرُ صرخةِ نادبِ

(١٦) وما غيّض السلوانُ دمعي وإنّما
نزفتُ دموعي في فراقِ الصواحبِ

(١٧) فحتى متى أبقى ويظعن صاحبٌ
أودّعُ منه راحلاً غير آيب ؟

(١٨) وحتى متى أرعى الكواكبَ ساهراً
فمن طالعٍ اخرى الليالي وغاربِ ؟

ـ ٤ ـ

(١٩) فأسمعني من وعظِه كلَّ عبرةٍ
يترجمها عنه لسانُ التجاربِ

(٢٠) فسلّى بما أبكى وسرّى بما شجا
وكان على عهدِ السُّرى خيرَ صاحبِ

(٢١) وقلتُ :ـ وقد نكّبتُ عنه لِطيّةٍ
سلامٌ ، فإنا من مُقيمٍ وذاهبِ

المعاني

١ ـ هوج الجنائب : رياح الجنوب القوية ، النجائب : جمع نجيبة وهي الأصيلة من الخيل هنا .

٦ ـ ارعن : احمق : شاهق اشم . ، طماح الذؤابة : الذي تكون نهايته عالية متطاولة . باذخ : من البذخ اي الارتفاع الغارب : الكاهل وهو ما بين الظهر والرقبة

٩ ـ يلوث : يعقد . ، الذوائب .

١٠ـ اصخت : استمعت منصتا بدقة ، السرى : السفر في الليل خاصة .

١١ـ اواه : كثير العبادة والتأوه ، تبتل : التبتل : التعبد والزهد .

١٢ـ المدلج : السائر في الظلمة ، مؤوب : عائد
قال : من القيلولة وهي الاستراحة التي تكون وقت الظهيرة .

١٣ـ معاطفي : المعاطف : الاعناق . ، غواربي : يريد بها جوانب الجبل وجهاته ..

١٤ـ الردى : الموت . ، النوى : البعد ، النوائب : جمع نائبة وهي المصيبة .

١٥ـ الورق : جمع ورقاء وهي الحمامة .

١٦ـ غيض : جفف وازال . ، السلوان : النسيان .

١٧ـ يظعن : يرحل ...

١٨ـ ارعى : اراقب .

٢٠ـ سرى : ازال الاسى .

٢١ـ نكبت : ملت او انصرفت . ، طية : حاجة او مقصد .

وقفة تحليلة

مقدمة

الحديث عن هذه القصيدة يقودنا الى وصف الطبيعة كغرض انشغل به كثير من الشعراء قبل ابن خفاجة وبعده لا سيما في الاندلس التي اتاحت طبيعتها المناخية وعادات اهلها وايقاع حياتهم الاكثار من النظم في هذا الغرض وبحماس شديد يصل حد التقليد اذ غدا اصلا من اصول الموشح الاندلسي فلا يخلو منه موشح من أخذ الشعراء يفيضون في تفصيل كل مظهر من مظاهر الطبيعة

صغيرا أو كبيرا ويجردون من مخلوقاتها مشخصان لهـــا مـا للاحياء من اوصاف وافعال .

الا ان امتياز هـذه القصيدة في غرضها وشهرتها بين اشباهها لا يتأتي من مجرد اندراجها تحت هـذا الباب الذي آل شيئا فشيئا الى زخرف جامد بل لان ابن خفاجة ـ مصور الطبيعة كما يسميه النقاد المتأخرون او الجنان كما يلقبه معاصروره ـ يبث الحياة في الطبيعة التي ينقلها فتحس انك ازاء عين انسانية راصدة لا (كاميرا) جامدة .. فالمناظر التي ينقلها حية نابضة يبرز فيهـا الانسان الذي يعطيها قيمتها ويتفاعل معها الى حـد الحـوار والاستبطان وربما التقمص كمـا في نصه الذي نحاول تحليه هنا .

بمعنى اخر ان الطبيعة في شعر معاصري ابن خفاجة اشبه بالطبيعة الصامتة في لوحات الرسامين التقليديين بينما هي في شعره جزء من حياة الانسان تلهم وتعلم كما تؤثر وتعجب .. ولا نستبعد ان يكون وراء هذا التفرد منهج خاص اختطه الشاعر ، فهو ـ كما نعلم ـ كان زاهدا بالممدوحين لا يطرق ـ شأن زملائه ـ ابوابهم مادحا او مستعطيا بل انه نشأ عابثا لاهيا في جزيرة « شقر » التابعة لبلنسية الاندلسية وقضى فيها حياته (٤٥٠ هـ ـ ٥٣٣) بعيدا عن تعرجات والتواءات الحياة السياسية العاصفة التي شهدتها المدن آنذاك .. وما املته على الشعراء مـن مواقف اتباعية الخلفـاء والامراء .

فاندماج ابن خفاجة بالطبيعة اذن كان تحت مؤثرات البيئة وعوامل التربية والمعايشة قبل ان يكون لسبب تكسبي او ضرورة

فنية تقليدا للموجة السائدة في شعر الاندلس .. من هنا كانت الطبيعة بعضا من سلوكه الخاص ومزاجه فهو حين يحاول احتواء معالمها في قصيدة انما يحاول ضمنا ان يحتوي رغباته وآماله وحياته كلها بما يعترضها من تحديات ...

١ ـ

تلك المقدمة القصيرة تضعنا في صلب القصيدة حيث نجد في قسمها الاول شكواه الحزينة من الاستلاب والعدم الذي يحسه حتى وهو في احضان الطبيعة يمارس لهوه وعبثه فهو مسافر في رحلة تقوده فيها (هوج الجنائب) مسرعة معجلة في غيابه باقصر مما تكون رحلة شروق الكواكب وغروبه وهو في رحلته هذه وحيد لا تؤنسه الا الاماني التي تبرق ثم تخبو لتسلمه الى ليل طويل ليس في انقضائه امل او رجاء ..

ان المقطع الاول مهم لولوج عالم القصيدة غير منفصل عن الوصف التالي بينما نجد اغلب كتب المختارات تسقط هذه المقدمة مبتدئة بالوصف المباشر وذلك امر يفقد القصيدة مرتكزها الفكري كما ارى فهذا الحزن الذي يمهد لوصف الجبل يحيط بالقصيدة كأطار اسود اللون .. او موسيقى تصويرية شجية تحتوي المشهد الذي سيصوره .. انها مقدمة ذات حزن عذب اشبه بنغمات عود حزين يتقدم اللحن الاساسي ويمهد له ويشيع جوه المأساوي حتى نهاية القصيدة التي ترتبط بهذه البداية ارتباطا قويا كما سنرى .

٢ ـ

لان ابن خفاجة يرمز بالجبل الى اكثر من مدلوله الطبيعي

كظاهرة .. نراه يرسم له اولا صورة خارجية بالغة الروعة تخلق الاحساس بعظمة الجبل وعلوه الشاهق .. انه يتحرك ازاء موضوعه بخطى مدروسة ذكية شأنه شأن مصور يستخدم (الكاميرا) بديلا للغة شاعرية شفيفة فمنظر الجبل يطالعنا ملتقطا من بعيد فيخلق في نفوسنا احساسا لا حد له بشموخ الجبل وخلوده .. كتلة مهيبة باذخة (تطاول اعنان السماء) وتسد هبوب الريح من جهاتها الاربع وتزاحم الكواكب في عليائها .. اننا مسحورون برقى الشاعر الاخاذة تمهيدا لنقل الحركة التصويرية التالية الى مخيلاتنا وتوصيل قناعات الشاعر لتغدو قناعاتنا نحن . فهذا الجبل يبدو منافسا لليل مزاحما لكواكبه ولنتذكر ان الليل ذو وجود شديد الوطأة على نفس الشاعر (كما مر في البيت الخامس) : لقد صار للجبل الذي يرادف الليل وجودا مكانيا ثقيلا (في البيت السابع) بعد ان كان زمانا متجددا لا ينقضي ..

ثم يدخلنا الى باطن تلك الكلتة الصماء المتحدية .. فيجد ـ عن قرب ـ ان الجبل اشبه بشيخ حكيم وقور يواجه الفلاة بفكره المحلل بينما تصنع الغيوم حول رأسه عمائم سودا ثم يضيف لهذا المشهد المهم لونا احمر كالذوائب يصنعها وميض البرق الذي يفجر في الذاكرة ما تختزن من تذكرات وما استنتجت من حكم وتجارب.

يدخل الشاعر الان الى المشهد (في البيت العاشر) محاورا الجبل مقتربا منه بلقطة سريعة وانتقالة متقنة : فهو لا يرسم طبيعة جامدة لها وجود موضوعي خارج الانسان بل انه يخلقها ليتحدث بالضبط عن هذا الانسان : فها هو يصيخ : ينصت مستمعا بكل

حواسه لان الكلام سيكون للجبل وهو (اخرس صامت) ستتفجر كلماته العجيبة في ليل السفر .. في جزء مهم ذي مدلول استثنائي في رحلة الشاعر .

ان (السرى) هنا رمز لرحلة الحياة . والجبل المتحدث في الليل ليس غير صدى الاهوال التي تعترض طريق السعادة والاستمتاع بالطبيعة التي هي الحياة ذاتها ...

ان الوجود الموضوعي المحايد او الخارجي للجبل ينتفي هنا ولا يسعفنا شيئا عندما نحاول الاقتراب من النص فليس الجبل الا وسيلة تصويرية يستبطن الشاعر من خلالها معاناته الذاتية بعد ان اسقطها ببراعة وعذوبة على منظر مألوف في الحياة اعطاه من الصلادة والقوة ما يسوغ استبطانه واستجلاء اعماقه في الحركة التالية فماذا يقول الجبل العملاق الشامخ بعد ان نفخ فيه الشاعر الحياة ؟؟ او ماذا سيقول الشاعر بعد ان ارتدى قناع الجبل ؟

٣ ـ

عذابات الرحلة الذاتية للشاعر .. احساسه بالاستلاب وخوفه من هوة العدم التي تنتظره في نهاية الرحلة .. تقلبات الحياة وصراع نقائضها : كل ذلك مما يهم الشاعر ويقلقه سيكون موضع قلق وخوف الجبل رغم عظمته التي طالعتنا في القسم الثاني من القصيدة : بالتالي فأية اسئلة خطيرة تلك التي تحتل فكر الشاعر وتشكل مخاوفه ؟؟

انه استطاع ان يعطي افكاره لهذا الجبل الهامد : ان يستغل

حدقتيه الحجريتين الواسعتين وظله الطويل الممتد على الصحراء فماذا راى من خلالها ؟

لقد طرح اعتقاداته المذعورة بحتمية الموت بعد ان استعرض جدلية الحياة والفناء التي لا ينجو من قانونها حتى الكائن الطبيعي الجامد : هي قانون يسري على الاحياء فتراهم بين قاتل يبحث عن ملجأ آمن فيلتقي بنقيضه الزاهد الباحث عن مكان صالح للتعبد .. وهذا تأكيد على اتفاق الزهاد والعابثين في القناعة بأن زوال الحياة امر حتمي يفرض اتخاذ موقف لكنهم يختلفون بعد هذا التشخيص المشترك في اتخاذ (الموقف) المناسب .. وهم مفترقون في الطرق بين مسافر وعائد .. راجل وراكب لكنهم في وضعهم هذا ليسوا استثناء : انها القاعدة (ففي البيت الثالث عشر) يفتقد الجبل تلك الرياح والبحار التي طالما تكسرت عند اعاليه وحوافه فماذا كانت نهاية الرحلة لهم جميعا : قتلة وزهادا .. ذاهبين وعائدين .. بشرا ورياحا وبحارا ؟؟ يجيب (في البيت الرابع عشر) : طوتهم يد الردى: ها هو الموت يطل لينهي كل شيء في استعارة رائعة تجسد للموت كيانا محسوسا وتعطيه صفات الانسان : ان له يدا تطوى هؤلاء جميعا وترمي بهم بعيدا عن الوجود ..

نلاحظ هنا تطابق الشاعر مع الطبيعة في المواجهة والمصير ايضا .. انه يتوحد بهذا العالم الذي احبه فيرثي نهاية موجوداته كما يرثي البشر .. ان اشياء الطبيعة تغدو بعضا من صواحبه المفقودين (في البيت الخامس عشر) وقبل ذلك (في البيت الثاني) كانت رحلته بين الولادة والموت كطلوع الكواكب ثم غروبه ..

وفي زمن متأخر عن ابن خفاجة سنجد وريثه الاندلسي لوركا يرثي صديقه مصارع الثيران قائلا : نم واسترح فحتى البحر يموت يوما .. انه البحث ذاته عن معنى الفناء .. في الطبيعة التي يزول جمالها كما يفنى البشر ...

يظل للانسان امام هذا التحدي الاعظم ان يدافع بكل الاسلحة الممكنة ومنها : الفن والرثاء الباكي . في البيت الخامس عشر يستجيب الشاعر لتحدي الموت بالخفقات والانين : هذا اذا وافقنا على افتراض ان الشاعر والجبل ــ القناع اصبحا شيئا واحـدا .. انه سيعزف على أوتار انغامه الشجية الحزينة كبكاء الحمائم وخفقات اغصان الشجر ..

يتبع ذلك الموقف :، البكاء المتدفق الساخن فيعلن ببؤس والم الاستسلام لهذا المقدور الحتمي وللجدلية القاهرة .. ولكن أيوجد حل اخر بعيدا عن ذلك ؟

نعم : انها صرخات من الاسئلة المتمردة : (حتى متى) نظل في موقف الوداع الحزين كلما سرق منا الموت قطعة عزيزة .. (وحتى متى) نظل نراقب غياب الكواكب التي تخبو مندحرة في صدر هذا الليل المعتم الموحش ..

مرة اخرى : الليل : مقبرة الكواكب الطالعة ووحشة الرحلة الابدية :ــ لقد صار له الان بعد ثالث : كان زمانا متحجرا فمكانا ثقيل الوطء وها هو الان نهاية الرحلة ففيه تنطفىء الكواكب وتخبو الامال .. اذن فلم يفعل الشاعر وهو يفضي بهواجسه سوى انه

هرب من الليل ــ في الليل ــ الى الليل نفسه فمن العدم جاء واليه يعود .. هكذايريد ان يقرر وكأنه يغص وهو يتمتع بشرابه او يختنق وهو في ذروة سروره وانشراحه اي يتلاشى خلال ممارسته لطقوس الحياة وفقا لطريقته .

٤ ــ

يتغير المشهد : ها هو الانسان ثانية عنصر اللوحة الوصفية وخامتها الرئيسة يتقدم الى صدر المشهد يتعلم من الجبل الذي تحدث بلسان التجارب فأكد شكلا ومضمونا حتمية الفناء كضرورة لتجدد الحياة ذاتها .. فلقد تسلى الشاعر بحديث الجبل رغم انه ابكاه .. وازال عن نفسه الكروب مع انه حديث محزن يحدد النهاية فقام معلنا انه سيواصل الرحلة مستسلما ملقيا بنفسه الى العدم لان الطريق تؤدي اليه وحده وتلك حتمية شهدها توا ، لكنه يقولها بلغة العابث نفسه الذي لم يغير القناع من ملامحه شيئا : (سلام فانا من مقيم وذاهب) .. ها هو يستلهم العمود الفقري للفكر العبثي الذي يرى بان رحلة الحياة معروفة النهاية فلم لا نفعل خلالها ما نشاء ؟

وهكذا ينسحب الشاعر منهيا تصويره الحي للجبل في لقطة ذكية تؤكد ان قصيدته لوحة وصفية نابضة تتنامى فيها العناصر بشكل درامي مدروس متصاعد يصل الى ذروته في الفقرة الاخيرة التي تظل محفورة في الذاكرة فهي ــ مرة اخرى ــ ليست صورة جامدة او (سلايدا) صامتا . بل هي نهاية مفتوحة تقول لك ان هذا سوف يتكرر ويتكرر الى الابد ..

كيف اطمأن ابن خلدون ــ وهو ناقـد التـاريخ العلمي الرافض لمناهج سابقية ــ الى ما قاله شيوخه عن ابن خفاجة فنقله دون مناقشة ؟ ذلك سؤال لا تمنع نفسك من طرحه وانت تقرأ قول ابن خلدون في (مقدمته) ص ٥٧٥ [كان شيوخنا يعيبون شعر ابن خفاجة لكثرة معانيه وازدحامها في البيت الواحد] فالرجل يقـدم في قصائده وحدة موضوعية قل ان تتوفر لشاعر انذاك كما انـه يمسك بموضوعه بمهارة ويخطط لفكرته بصورة واعية تجعل المعاني المطروحـة سلسلة متصلة تؤدي الى الغرض ولا يمكن ان نجـد للراي السابق تفسيرا الا بان ابن خفاجة كان يحيل اشد الاغراض تقليدية وموضوعية الى مناسبة انسانية خاصة •• من هنا يكون ما عابه الشيوخ على ابن خفاجة هو ذات الامتياز الذي اثبتناه في المقدمة لقصيدته هذه مما يصح قوله في سائر اشعاره •

لقد حسب الشيوخ النقاد الحياة النابضة والحركة المتنامية في شعر ابن خفاجة ازدحاما في المعاني لا يتحمله البيت الذي كانوا يقدسون وحدته ويرون لها صورة ثابتة لا يجوز ــ تحت اي مسوغ ــ الخروج عليها •

انهم يخلقون من الابيات ــ حتى في قصائد الوصف ــ) سلايدات (هامدة منفصل بعضها عن بعضها الاخر لا تمتلـك حياتها الا داخل حيزها الممدود ، فتظل القصيدة ذات نمو بطيء لا يبتعد بها عن نقطة بدايتها بينما كان يتجول ابن خفاجة (بكاميرا) حيّة تلتقط المناظر العذبة ، فيؤ بينها بوعي مستعيدا بعضها بين

آن واخر • ويربط بينها بقدرة يد خبيرة في عمل شبيه (بالموتتاج) الحاذق •• الامر الذي حدا بمعاصرينا الى ان يعطوه عن جدارة لقب (مصور الطبيعة) لا رسامها ، لذا كان منظر الجبل الاخرس الناطق تجسيدا لادراك الشاعر لجدلية الموت والبقاء الحتمية التي كانت تثقل على ضمير الشاعر وترسم امام عينه وسط مباهج الطبيعة واحتفائه بها : علامات استفهام كبيرة لم يجد في الشعر جوابا لها كما انه لم يجد في العبث ــ الى حد المجون ــ والطبيعة (ممثلة في الجبل : اقوى كائناتها) من بصيص لجواب تهدأ بــه الهواجس وتستقر المخاوف فتسكن النفوس •

الفهرست

٣ ـ المقـــدمة الدكتور محمود عبدالله الجادر والدكتور بهجت عبدالغفور

١٦ ـ قتيـل في سـلع خالد علي مصطفى

٣٤ ـ تائيـــة الشنفري مرشـــد الزبيدي

٤٧ ـ خواطر في الحياة والموت « مختارات من معلقة طرفة بن العبـد » الدكتور ياسين الايوبي

٥٨ ـ ألا لا تلوماني منـذر الجبوري

٦٨ ـ داليـــة عمـر بن معـد يكرب ياسين طه حافظ

٧٨ ـ داليـة المقنـع الكنـدي حسين العـلاق

٨٩ ـ ألـم تغضبوا ؟ «عبدالله بن زبير الاسدي » مسلم الجابري

١٠٥ـ داليـــة العـــديل عبدالاله الصـايغ

١٢٢ـ نص وقراءتان عبدالوهاب العدواني

١٣٦ـ رائيـة أبي صخر الهذلي الدكتور أحمد نصيف الجنابي

١٥٥ـ بائيـة ذي الرمـة طراد الكبيسي

١٧٠ـ مرثية مالك بن الريب التميمي حسين سلمان حسين

١٨٢ـ يا حسرة ما اكاد احملهـا علي جعفر العلاق

٢١١ـ قراءة في نونية المعري غالب المطلبي

٢٣٠ـ الاخـــرس الناطـق حاتم محمد الصكر

٢٤٣ـ هامش أخـــير